بقلم
رئيس التحرير

د.ق.أندريه زكي

رئيسُ الطائفةِ الإنجيليَّةِ بمِصْر

رئيسُ الهيئةِ القبطيَّةِ الإنجيليَّةِ للخدماتِ الاجتماعيَّةِ

الميلاد ومعنى الحياة

مقدمة

يأتي احتفال عيد ميلاد السيد المسيح بالأمل والرجاء للإنسانية التائهة الباحثة عن المعنى. ولا يخفى على أحد أننا نحتفل بعيد الميلاد وسط أجواء لم نختبرها من قبل؛ إذ تسبب انتشار جائحة كورونا حول العالم في خسائر كثيرة في الأرواح، كما أن الخسائر الاقتصادية والاجتماعية اجتاحت بلدانًا كثيرة. لكن نشكر الله لأجل القيادة السياسية وحكومة بلادنا الذين اتخذوا قرارات حكيمة وصائبة لتوفير كافة سُبل الرعاية اللازمة للمصابين.

خبرة الإصابة بكورونا

لقد أُصِبت شخصيًا بهذا الفيروس، أنا وكل أفراد عائلتي، وذلك خلال الأسبوع الأخير من سبتمبر الماضي. وقمت بعمل التحاليل والأشعة اللازمة والتي لم يكن بها أي إشارة للإصابة بكورونا وكانت جيدة واستمررت لمدة أسبوع كامل يتم علاجي على أنها نزلة برد. وفي نهاية الأسبوع الأول وبإصرار الأصدقاء قمت بعمل مسحة وكانت النتيجة أنني مصاب بكورونا رغم أن التحاليل والأشعة قالت عكس ذلك، وهذا ما تسبب في إصابة أسرتي بالكامل.

وحينما أُصِبت بفيروس كورونا، وحينما تم تأكيد الإصابة بنتيجة المسحة الإيجابية، بدأت في الانعزال عن العالم حتى يتم الشفاء بالكامل. خلال هذه المرحلة كان لديَّ ثلاث خبرات رئيسية.

الخبرة الأولى هي الإحساس العميق بالمجهول. ففي كل مرة كنت أدخل للنوم لم يكن لديَّ أدنى فكرة عمّا سيحدث صباح اليوم التالي. كان هناك شعور عميق بأن الغد مجهول، لا يمكن التكهن به وما سيحمله لي أو لعائلتي من أحداث.

الخبرة الثانية هي الاقتلاع من الجذور. وهناك ثلاث دوائر تمثل لي الحياة بأكملها: الأسرة، الخدمة، والعمل. وعلى مدار أسابيع العزل أثناء المرض، اختبرت كيف تم اقتلاعي بالكامل من هذه الجذور العميقة في حياتي. خدمتي برئاسة الطائفة الإنجيلية وبالكنيسة بشكل عام، وجدت نفسي بعيدًا عنها، وأتابع أخبارها من بعيد وفي صمت. وكذلك انعزلت عن عملي، فلم أستطع أن أكون متواجدًا في كل مجالات العمل سواء بالهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية أو برئاسة الطائفة الإنجيلية أو بكافة مناحي العمل التي أمارسها بشكل يومي.

أما الخبرة الثالثة فهي العزل، في العزل المنزلي تشعر أن كل شخص يبتعد عنك، لأنك تصبح مصدرًا للعدوى. أصبح كل من يريد رؤيتك والجلوس معك يتحاشى اللقاء، ولا يمكن أن يخالطك بأي شكل مقبول. وهنا تذكرت شريعة الأبرص في العهد القديم.

أقول لكم بصدق: لم تكن هذه خبرة سهلة على النفس بل كانت خبرة وجود قَلِق. وأصبحت شهادة المسحة السلبية بمثابة شهادة رجوع للحياة مرة أخرى!

وسط هذه الخبرات الثلاثة، بدأت أسأل نفسي: ما معنى هذه الحياة؟ سأل يعقوب الرسول نفس السؤال: «لأَنَّهُ مَا هِيَ حَيَاتُكُمْ؟ إِنَّهَا بُخَارٌ، يَظْهَرُ قَلِيلًا ثُمَّ يَضْمَحِلُّ» (يع 4: 14). وهذا ليس سؤالًا شخصيًا، بل هو سؤال البشرية كلها: كل واحد فينا يسأله لنفسه في مراحل متفرقة من الحياة: ما معنى هذه الحياة؟ ولماذا نعيش إن كنّا بهذه الهشاشة ويمكن أن نموت في أي لحظة؟ انطلاقًا من هذا السؤال نفهم معنى ميلاد السيد المسيح.

ميلاد المسيح ومعنى الحياة

يحكي البشير متى عن المجوس الذي جاءوا ليروا الملك الذي ظهر نجمه في السماء وأرشدهم لولادته (مت 2: 1- 3). جاء المجوس ليسجدوا لملك حقيقي رأوا علامة ميلاده في السماء، هذا الملك الحقيقي هو المسيح. ولكن يستدعيهم ملك مزيف إلى قصره، هو هيرودس. ودائمًا هناك ملوك مزيفين، يستمدون قيمتهم الحقيقية من السلطة، كما فعل فرعون قديمًا حينما حاول أن يقتل النبي موسى، وهكذا فعل هيرودس حينما حاول قتل السيد المسيح. في الحالتين يصدر كل منهما قرارًا بالقتل الجماعي ليتخلص من الطفل، وفي الحالتين يتدخل الله لينقذهما.

وحينما وُلِد المسيح كان هيرودس الكبير هو الحاكم السياسي الذي ملك على البلاد في الفترة 37- 4 ق. م. وكان يخاف على منصبه أشد الخوف لدرجة أن يوسيفوس المؤرخ اليهودي يخبرنا أنه قتل اثنين من أبنائه لأن كان لديه هواجس بأنهم يريدون الاستيلاء على عرشه. كان هيرودس مستعدًا أن يفعل أي شيء ليحافظ على سلطته ومركزه ومنصبه ونفوذه وقوته.

ولكن أدعوكم لثوانٍ قليلة أن تتخيلوا معي لو أن هيرودس بيننا الآن في هذا الزمان وقد أُصيب بكورونا، ماذا كان سيحدث لأحلامه؟ وأنا هنا لا أتحدث فقط عن ملك شرير، ولكن أتحدث عنّا جميعًا، فكلنا نضع آمالنا في أمر أو آخر في حياتنا، وكل هذا يلهينا عن معنى حياتنا الحقيقي.

فجُسيم بسيط صغير لا يُرى بالعين المجردة أظهر لنا قدرنا الحقيقي...

ذهب المجوس يبحثون عن الملك، فكان الطبيعي أن يبحثوا في القصر. ولكن بين قصر

هيرودس وبيت يسوع مسافة شاسعة. لقد وجدوا الطفل يسوع في بيت بسيط ولكن مليء بالفرح. يقول النص: «فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جِدًّا» (مت 2: 10). وحينما وجد المجوس يسوع مع أمه «خروا وسجدوا له» (مت 2: 11). رغم أن المجوس كانوا علماء فلك وعلوم وفكر كبار من بابل، ولكن هنا نرى نموذجًا آخر؛ إذ لا يستنكف المجوس بالسجود ليسوع. المجوس يعرفون أن يسوع هو الملك الحقيقي، ومهما كان علمهم أو مكانتهم العلمية مرموقة، فإنهم يسجدون للملك الحقيقي. وفي المقابل، هيرودس يكذب بادعائه أنه يريد أن يسجد للمسيح حينما يعثروا على مكانه (مت 2: 8). نحن دائمًا نعبد، ولكن قد نعبد المنصب، السلطة، المال، والقوة، ونصبح مقيدين بهم ولهم. ولكن المجوس لم يفعلوا ذلك، بل سجدوا للملك الحقيقي. المجوس قدموا أغلى ما عندهم للمسيح.

هيرودس ونبوخذنصّر

في الحقيقة، لم يكن هيرودس أول من أصيب بجنون العظمة بهذه الطريقة، بل سبقه ملك آخر يحكي عنه الكتاب المقدس وهو نبوخذ نصّر ملك بابل: «عِنْدَ نِهَايَةِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا كَانَ يَتَمَشَّى عَلَى قَصْرِ مَمْلَكَةِ بَابِلَ. وَأَجَابَ الْمَلِكُ فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ هذِهِ بَابِلَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي بَنَيْتُهَا لِبَيْتِ الْمُلْكِ بِقُوَّةِ اقْتِدَارِي، وَلِجَلاَلِ مَجْدِي؟»» (دا 4: 29– 30). لقد حدث هذا المشهد بعد تحذيرات من دانيآل النبي وأحلام أرسلها الله للملك بأن يتضع، ولكنه ظل يظن أنه الأعظم. ولكن جاءته إجابة السماء القاطعة: «وَالْكَلِمَةُ بَعْدُ بِفَمِ الْمَلِكِ، وَقَعَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً: «لَكَ يَقُولُونَ يَا نَبُوخَذْنَصَّرُ الْمَلِكُ: إِنَّ الْمُلْكَ قَدْ زَالَ عَنْكَ. وَيَطْرُدُونَكَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، وَتَكُونُ سُكْنَاكَ مَعَ حَيَوَانِ الْبَرِّ، وَيُطْعِمُونَكَ الْعُشْبَ كَالثِّيرَانِ، فَتَمْضِي عَلَيْكَ سَبْعَةُ أَزْمِنَةٍ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ الْعَلِيَّ مُتَسَلِّطٌ فِي مَمْلَكَةِ النَّاسِ وَأَنَّهُ يُعْطِيهَا مَنْ يَشَاءُ» فِي تِلْكَ السَّاعَةِ تَمَّ الأَمْرُ عَلَى نَبُوخَذْنَصَّرَ، فَطُرِدَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، وَأَكَلَ الْعُشْبَ كَالثِّيرَانِ، وَابْتَلَّ جِسْمُهُ بِنَدَى السَّمَاءِ حَتَّى طَالَ شَعْرُهُ مِثْلَ النُّسُورِ، وَأَظْفَارُهُ مِثْلَ الطُّيُورِ» (دا 4: 31 - 33).

إن النص الكتابي مُقتضب وسريع حتى يدرك القارئ الربط المباشر بين الكبرياء الذي حل بقلب الملك نبوخذ نصّر، والإذلال الذي تعرض له بسبب سعيه أن يكون مكان الله. ولكن أعطى الله الملك فرصة للتوبة، إذ يصف الكتاب: «وَعِنْدَ انْتِهَاءِ الأَيَّامِ، أَنَا نَبُوخَذْنَصَّرُ، رَفَعْتُ عَيْنَيَّ إِلَى السَّمَاءِ، فَرَجَعَ إِلَيَّ عَقْلِي، وَبَارَكْتُ الْعَلِيَّ وَسَبَّحْتُ وَحَمَدْتُ الْحَيَّ إِلَى الأَبَدِ، الَّذِي سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ، وَمَلَكُوتُهُ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. وَحُسِبَتْ جَمِيعُ سُكَّانِ الأَرْضِ كَلاَ شَيْءَ، وَهُوَ يَفْعَلُ كَمَا يَشَاءُ فِي جُنْدِ السَّمَاءِ وَسُكَّانِ الأَرْضِ، وَلاَ يُوجَدُ مَنْ يَمْنَعُ يَدَهُ أَوْ يَقُولُ لَهُ: «مَاذَا تَفْعَلُ؟». فِي ذلِكَ الْوَقْتِ رَجَعَ إِلَيَّ عَقْلِي، وَعَادَ إِلَيَّ جَلاَلُ مَمْلَكَتِي وَمَجْدِي وَبَهَائِي، وَطَلَبَنِي مُشِيرِيَّ وَعُظَمَائِي، وَتَثَبَّتُّ عَلَى مَمْلَكَتِي وَازْدَادَتْ لِي عَظَمَةٌ كَثِيرَةٌ. فَالآنَ، أَنَا نَبُوخَذْنَصَّرُ، أُسَبِّحُ وَأُعَظِّمُ وَأَحْمَدُ مَلِكَ السَّمَاءِ، الَّذِي كُلُّ أَعْمَالِهِ حَقٌّ وَطُرُقِهِ عَدْلٌ، وَمَنْ يَسْلُكُ بِالْكِبْرِيَاءِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُذِلَّهُ» (دا 4: 34– 37).

من المهم أن نلاحظ كيف تحول نبوخذنصّر من دورانه حول نفسه باعتباره مركز الكون، كما في الأعداد 31 - 33، وحينما بدأ في رفع عينيه إلى السماء ووصف الكتاب له أنه رجع إليه عقله (لاحظ أن هذا الوصف يتكرر مرتين في هذا المقطع). لم يعد نبوخذنصر يتكلم عن مملكته وعظمته ومجده بل ينسب السلطان الكامل لله، ويعلن خضوعه لله. وأخيرًا، يشدد نبوخذنصّر على أن من يسلك بالكبرياء فإن الله قادر أن يزيله.

ملك آشور

كما كان هيرودس ونبوخذنصر، فكان هناك ملك آشور أيضًا الذي يحكي النبي اشعياء كيف أنه تكبر في قلبه أيضًا: «كَيْفَ سَقَطْتِ مِنَ السَّمَاءِ يَا زُهَرَةُ، بِنْتَ الصُّبْحِ؟ كَيْفَ قُطِعْتِ إِلَى الأَرْضِ يَا قَاهِرَ الأُمَمِ؟ وَأَنْتِ قُلْتِ فِي قَلْبِكِ: أَصْعَدُ إِلَى السَّمَاوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللهِ، وَأَجْلِسُ عَلَى جَبَلِ الاجْتِمَاعِ فِي أَقَاصِي الشَّمَالِ. أَصْعَدُ فَوْقَ مُرْتَفَعَاتِ السَّحَابِ. أَصِيرُ مِثْلَ الْعَلِيِّ» (إش 14: 12– 14). هذا المقطع يحدثنا عن ملك أشور الذي جاء على المملكة الشمالية وحاصرها واستطاع أن يسبي المملكة بالكامل في عام 701 ق. م. يحكي النص كيف أنه كان ملكًا عظيمًا ولكنه قُطِع إلى الأرض، أي كأنه رُمِي على الأرض بينما كان عظيمًا. والسبب في ذلك هو كبرياء قلبه.

لم تكن كبرياء ملك آشور كبرياء طبيعيةً، إذ أراد أن يصعد ليجلس على كرسي الله وأن يصير مثل العلي. أراد هذا الملك أن ينحي وجود الله في المشهد تمامًا، بل لا أتجرأ حينما أقول إن ملك أشور أراد أن يكون هو نفسه الله (حاشا لله). لاحظ كلمات النبي أن الملك كان يحلم «أصير مثل العلي».

لكن ما حدث لهذا الملك في النص مرعب: «لكِنَّكَ انْحَدَرْتَ إِلَى الْهَاوِيَةِ، إِلَى أَسَافِلِ الْجُبِّ. اَلَّذِينَ يَرَوْنَكَ يَتَطَلَّعُونَ إِلَيْكَ، يَتَأَمَّلُونَ فِيكَ. أَهذَا هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي زَلْزَلَ الأَرْضَ وَزَعْزَعَ الْمَمَالِكَ، الَّذِي جَعَلَ الْعَالَمَ كَقَفْرٍ، وَهَدَمَ مُدُنَهُ، الَّذِي لَمْ يُطْلِقْ أَسْرَاهُ إِلَى بُيُوتِهِمْ؟» (إش 14: 15–17). لقد انحدر الرجل الذي زلزل الأرض بمثابة عبرة لكل من يريد أن يفكر بنفس الطريقة.

وعبر تاريخ التفسير الكتابي المسيحي، أصبح هذا المقطع من فرط قوته يُستخدم للإشارة لما حدث للشيطان والأرواح الشريرة. فبحسب هذا التفسير التقليدي، يُفهم معنى النص «كيف سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبح؟» على أنه إشارة للشيطان قبل سقوطه، إذ أراد بعد ذلك أن يجلس على عرش الله العلي ويأخذ مكانه (حاشا لله). وقد نتفق أو نختلف مع هذا التفسير، إلا أن يبرز لنا مدى بشاعة قلب ملك أشور وكيف أراد أن يصبح هو مركز الكون وحده.

في الحقيقة، لم يفعل هيرودس، ولا نبوخذ نصر، ولا ملك أشور كل ذلك لأنهم ملوك، بل لأن هذه هي طبيعة الإنسان الفاسدة التي تحتاج إلى مخلص. كل ما فعله هؤلاء الثلاثة نحن نفعله جميعًا كل يوم حتى في أبسط القرارات التي نتخذها. لهذا أنتقل معكم لمشهد البدايات لنرى كيف دخل الكبرياء إلى قلب الإنسانية...

ميلاد المسيح والسقوط في عدن

في الحقيقة، ما فعله هيرودس ليس غريبًا عن البشر. لقد بدأت البشرية في التوجه نحو عبادة أمور وأشياء أخرى في جنة عدن. وهنا أريد أن أقدم لكم ميلاد المسيح في ضوء ما حدث في جنة عدن (تك 3). لقد كان الإنسان مخلوقًا في ترتيب معين بحيث يكون خاضعًا لله، بينما يخضع الحيوان للإنسان. موسى النبي يوضح هذا الترتيب حينما يجعل الله فوق كل خليقة، ثم يجعل من الإنسان وكيلاً لله على الأرض ليعمل فيها، ثم يجعل الحيوان تحت سلطة الإنسان (تك 1– 2).

في هذا السياق، كان الله هو الذي يصدر التشريع: «يوم أن تأكل من هذه الشجرة موتًا تموت» (تك 2: 17). وعلى الإنسان أن يخضع لله. وبالتالي، كانت وصايا الله هي معيار الصواب

والخطأ. ما يقول الله إنه صواب هو صواب لا جدال فيه، ونفس الأمر ينطبق على الخطأ.

لكن ما حدث بعد ذلك في (تك 3) هو أن الحيوان، الأقل في ترتيب الخليقة، هو الذي أعطى للإنسان وصية «فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر» (تك 3: 5). إن ما أغرت به الحية حواء في هذا المقطع هو أنها ستكون مثل الله! لاحظ أن هذا هو بالضبط ما أراده ملك أشور الذي أراد أن يصير مثل العلي، وهو نفسه ما افتخر نبوخذنصر به واعتز بنفسه، وهو نفس التوجه الذي تبناه هيرودس نحو يسوع. عند هذه النقطة، نلاحظ أن ترتيب الخليقة أصبح منعكسًا: أصبح الحيوان هو الذي يعطي الوصية، والإنسان يستقبل منه، بينما تمت تنحية الله تمامًا عن المشهد! فالسؤال الذي يدعونا النص الكتابي أن نسأله هو: من هو الله ومن هو الإنسان بهذه الطريقة؟

في الحقيقة، ورغم أن هناك دروس كثيرة وعديدة يمكن أن نتعلمها من قصة الخلق والسقوط، إلا أن المحور اللاهوتي للنص يشير إلى جوهر خطية الإنسان: أن يصبح هو المركز، فيتلاشى الله من المشهد. وما حدث مع آدم وحواء هو أمر متكرر ويحدث في كل تاريخ البشرية. فالخطية ليست فقط كسر الوصية، بل هي توجه عام للسلوك الإنساني يتمركز حول الإنسان ورغباته وطموحاته، متناسيًا وجود الله وحضوره في الحياة.

الخاتمة

لقد أدرك المجوس ما لم يدركه هؤلاء الملوك العظام، وربما نحتاج في أوقات لخبرات حياتية تجعلنا نتذكر من هو الإنسان حقًا. أين نضع رجاءنا الحقيقي؟ أين نضع معنى حياتنا؟ هل في قوتنا ومراكزنا الاجتماعية ونفوذنا وأموالنا وعلاقاتنا؟ كل هذا هش، ويمكن أن يختفي بسهولة وسرعة. الإنسان أضعف من هذا بكثير.

وهذه دعوتي اليوم: أن نقدم كل ما لدينا للمسيح، لأن فيه وحده الرجاء الحقيقي، والشبع الحقيقي، والراحة الحقيقية. كذلك فلنقدم أغلى ما عندنا لخدمة المحتاجين والمرضى الذين لا يجدون من يساعدهم ولا يهتم بأمرهم. أدعوكم أن نحتفل بالميلاد عن طريق المحبة العملية لكل الضعفاء والمقهورين بالمرض والفقر. ليكن احتفالنا بالميلاد بمثابة دعوة جديدة أن نعيش إنسانيتنا وسط وباء لا يفرق بين أحد.

بهذا يكون الميلاد معنى جديد للحياة.

الدكتور القس أندريه زكي

رئيس الهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية

رئيس الطائفة الإنجيلية بمصر